الموازنــة
بين ابن خلدون وأوجيست كونت

بقلـم :
الدكتور زيدان عبد الباقي

الموازنـة

بين ابن خلدون وأوجيست كونت

بقلم : الدكتور زيدان عبد الباقي

اختلفت الآراء حول تحديد اسم منشىء علم الاجتماع ، فالعرب يقولون انه ابن خلـدون والانجليز يقولون انه هربـرت سبنسر . والفرنسيون بعضهم يقول انه سان سيمون والبعض الآخر يقول انه أوجيست كونت والبلجيكيون يقولون انه « كيتليه » ... ولكـن الدراسة الموضوعية أو المنهجية تؤكد أنه كانت لهذا العلم نشأتان . الاولى في المنطقة العربية ، وعلى يد عبد الرحمن بن خلدون فيما بين سنة ١٣٣٢ وسنة ١٤٠٦ ميلادية ... والثانية كانت بعد ذلك بحوالي ٤٥٠ سنة ، أي فيما بين سنة ١٧٩٨ و ١٨٥٧ ميلادية في أوروبا ، وعلى يدي أوجيست كونت . وكانت كل نشأة منهما مستقلة تماما عن الاخرى بالرغم من تشابه أسس العلم وأهدافه هنا وهنـاك . وعلى ذلك فان الموازنة هنا سوف تتركز على كل من ابن خلدون وأجيست كونت من خلال مجموعة من المقومات الاساسية لشخصية كل منهمـا وأفكاره الابتكارية .

اولا ـ نشاتهما : ابن خلدون واوجيست كونت :

تتميز نشأة كل منهما بظروف تختلف عن الآخر اختلافا جذريا ، وكما سيتبين لنا ذلك من الفقرتين التاليتين :

١ ـ نشأة ابن خلدون :

ابن خلدون هو عبد الرحمن أبو زيد ولي الدين بن خلدون الحضرمي ، فاسمه عبد الرحمن وكنيته أبو زيد ، ولقبه ولي الدين ، وشهرته : ابن خلدون • وقد ولد في « تونس » في غرة رمضان سنة ٧٣٢ هجرية (٢٧ مايو ١٣٣٢ ميلادية) في فترة مظلمة من تاريخ البشرية حيث كانت الحضارة الاسلامية في طريق الأفول ••• والحضارة الاوروبية تعيش في ظلام القرون الوسطى • ولما بلغ سن التعليم تولى والده تحفيظه القرآن الكريم وتجويده ، بالاضافة الى دراسة العلوم الشرعية والعربية على يدي عدد كبير من أشهر علماء تونس لعهده ، كما درس الطبيعة والرياضيات وعلوم المنطق والفلسفة بالمستوى المتواضع الذي كان متاحا يومئذ • وكان كل ذلك طبقا لطريقة التعليم السائدة يومئذ ، حيث يتجمع عدد ما من طلاب العلم حول أحد العلماء في أحد أركان مسجد من المساجد • الى أن يحيط الطالب بعلم هذا العالم • فيتركه الى عالم آخر ، وهكذا ••• وذلك لعدم وجود مدارس أو معاهد أو جامعات يومئذ •

وكان اتجاه ابن خلدون يومئذ أن يتفرغ للعلم كما فعل والده من قبل • ولكن لم تأت الرياح بما يشتهي السفن ، حيث ـ عندما بلغ الثامنة عشرة من عمره ـ عاقه عن متابعة الدراسة حادثان : أولهما ، وفاة أبيه ومعظم من كان يأخذ عليهم العلم من شيوخه بسبب وباء الطاعون الذي اجتاح العالم في منتصف القرن الثامن الهجري • وثانيهما: هجرة معظم العلماء والآباء الذين أفلتوا من هذا الوباء من تونس الى المغرب • وترتيبا على ذلك غيَّر ابن خلدون اتجاهه في حياته حيث انصرف عن العلم واشتغل بالوظائف العامة وبالسياسة ، وتقلب في كثير من الوظائف وفي دواوين الكثيرين من الملوك والامراء في تونس والمغرب

والاندلس والشام ومصر ، حيث اشتغل كاتبا وأستاذا وقاضيا للقضاة ، وحاجبا ــ رئيسا للوزراء ــ وكان قد رحل الى مصر سنة ٧٨٤ هجرية • وتوفي فيها عن ستة وسبعين عاما ، في السادس والعشرين من رمضان سنة ٨٠٨ هجرية (١٦ مارس ١٤٠٦ ميلادية) • وكان حينئذ يشغل وظيفة قاضي القضاة المالكية في مصر • وقد دفن في مقابر الصوفية ، خارج باب النصر ــ أحد أبواب سور القاهرة القديم ــ في اتجاه حي « الريدانية » وهو حي « العباسية » بالقاهرة الآن • ولكن لا يعرف على وجه التحديد أين يوجد القبر ؟ حيث تحولت تلك المنطقة الى حي سكني ، ولا أثر فيه للقبور •

ومن ذلك يتضح أن ابن خلدون لم تتح له فرصة التعليم المنظم في مدارس أو جامعات ، كما أنه لم يستكمل ذلك التعليم الذي كان يوفره له أبوه ومعاصروه ••• وذلك بالاضافة الى اختلاف اتجاهاته الفكرية مع اتجاهات معاصريه ممن كانوا يهتمون بالنواحي التاريخية والفكرية • فقد كان المفكرون يومئذ ينقسمون الى ثلاث شعب[1] هي :

١) ــ البحوث التاريخية الخالصة :

وهي البحوث التي يقتصر أصحابها على وصف الظواهر الاجتماعية وبيان ما كانت عليه ، وما هي عليه الآن ، دون محاولة استخلاص بعض النتائج من هذا الوصف فيما يتعلق بطبيعة هذه الظواهر وقوانينها • وقد سار على هذا النحو جسيع البحاث في التاريخ العام من قبل ابن خلدون ، حيث نراهم في ثنايا تناولهم لمسائل تاريخ العلم يجنحون

---

(١) تاريخ العلامة ابن خلدون ، الطبعة الاولى ، منشورات دار الكتاب اللبناني للطباعة والنشر ، بيروت ، لبنان ، الطبعة الاولى ، بيروت ١٩٥٦ جـ ١ ص ١ ــ ٧١٦ •

من حين الى آخـر ، وبحسب المناسبات الى دراسـة النظم السياسية وما يتصل بالقضاء والاقتصاد والتربية وغير ذلك مما يدخل في نطاق الظواهر الاجتماعية ، حيث يلجأون الى وصف ما كانت عليه هذه النظم الاجتماعية في الشعوب التي يتناولونها بالدراسة من حيث تواريخها وظروفها الاجتماعية • وسار على هذا النهج أيضا ، جميع الذين درسوا تاريخ النظم الاجتماعية في صورة مستقلة عن أحداث التاريخ العـام ، فجعلوا موضوع دراساتهم تاريخ مجموعة معينة من هذه النظم • كما اقتصر هؤلاء كذلك على وصف هذه النظم وبيان ما كانت عليه ، وماهي عليه ، كما فعل ابن حزم في دراساته للملل والنحل ، وكما فعل الفقهاء والمؤرخون في دراساتهم لتاريخ التشريع ، وتاريخ القضاء ، وتاريخ التربية ، وتاريخ الدين ••• الخ •

ومن الواضح أن مثل هذه البحوث لا تدخل في نطاق علم الاجتماع، على اعتبار أن ذلك العلم لا يقف عند حد وصف الظواهر الاجتماعية • كما أن غرضه ليس مجرد هـذا الوصف ، بل انه يرمي الى تحليلهـا للكشف عن طبيعتها وعن العلاقات التي تربط بينها ، وما تخضع له من قوانين علمية • وقد يستخدم الوصف في الوصول الى تلك القوانين • ولكن هذا الوصف يستخدم ليكون مجرد تمهيد للغرض الاساس ، وهو ربط الاسباب بالمسببات ، والمقدمات بالنتائـج ، واستخلاص القوانين العامة التي تحدد العلاقات بين تلك الظواهر •

٢) ـ بحوث وعظية وارشادية :

وهي تلك البحوث التي تدعو الى المبادىء التي تقررها نظم المجتمع وما يسوده من معتقدات وتقاليد ارتضاها المجتمع وقبلها العرف الخلقي، وذلك ببيان محاسنها وترغيب الناس فيها ، وتثبيتها في نفوسهم ، وحثهم

على التمسك بها ، وتحذيرهم من تعدي حدودها ، وايضاح ما ينبغي أن يتخذوه في تطبيقها . وتلك هي الطريقة التي سلكها بعض علماء الدين والخطابة والاخلاق ، وبعض البحاث في المجالات السياسية والدينية .. مثل ابن مسكويه في كتابه « تهذيب الاخلاق » والغزالي في كتابه « احياء علوم الدين » والماوردي في كتابه « الاحكام السلطانية » والطرطوشي في كتابه « سراج الملوك » ... وما الى ذلك .

ومن الواضح أن هذه البحوث لا تدخل ـ أيضا ـ في نطاق علم الاجتماع ، على اعتبار أن ذلك العلم ـ كما هو معروف ـ لا شأن له بالوعظ والارشاد ، ولا بالدعوة الى المبادىء . وانما يتناول بالدراسة مشكلات المجتمع ، كما يتناول علم الكيمياء الظواهر الطبيعية ، بهدف مجرد الوقوف على حقيقتها والعلاقات التي تربط بينها .

٣) ـ بحوث فيما ينبغي أن يكون :

وهي بحوث هدفها الرئيس هو ما ينبغي أن تكون عليه الظواهر الاجتماعية طبقا للمنظور الذي ينظر منه كل منهم الى المجتمع . بمعنى أنها دراسات اصلاحية ترمي الى تغيير النظم واصلاح الحياة الاجتماعية على الوجه الذي يلائم نظريات أصحابها في العدالة والسعادة والفضيلة وما الى ذلك . ومن أمثلتها بحوث أفلاطون في كتابه الجمهورية والقوانين وأرسطو في كتابيه « الاخلاق والسياسة » والفارابي في كتابه « آراء أهل المدينة الفاضلة » ... حيث كان هدف كل منهم الوصول الى المجتمع الذي ينبغي أن يكون في مختلف ظواهره ، أو في بعضها ، حتى يكون مجتمعا فاضلا في نظره ، ووفق ما يذهب اليه من آراء فلسفية عن مختلف شئون الاجتماع والاخلاق ومقومات الحكم وما الى ذلك .

ومن الواضح ـ أيضا ـ أن هذه البحوث لا تدخل في نطاق علم

الاجتماع ، على اعتبار أن هذا العلم ـ كما هو معروف ـ لا شأن له بما ينبغي أن يكون ، وانما يتناول بالدراسة ما هو كائن للكشف عن طبيعته وقوانينه والعلاقات التي تربط بين مختلف الظواهر الاجتماعية .

نخلص من هذا الى أنه لا يوجد بين الدراسات الاجتماعية السابقة على « مقدمة ابن خلدون » نوع من الدراسات التي تتفق في أغراضها ومناهجها مع ما نسميه الآن بعلم الاجتماع . أي أنه قبل ظهور تلك « المقدمة » لم يكن علم الاجتماع قد أنشىء بعد ، وأنه قبل ابن خلدون ـ تأسيسا على ذلك ـ لم يفكر أحد في انشاء ذلك العلم أو وضع أساس له . ولعل السبب في ذلك يرجع الى أن دراسة الظواهر الاجتماعية على الطريقة التي يسير عليها علم الاجتماع لا تتاح الا لمن ثبتت لديه أن هذه الظواهر لا تسير حسب الأهواء والمصادفات ، ولا حسب ما يريده لها الافراد ، وانما تسير في نشأتها وتطورها ومختلف أحوالها حسب قوانين ثابتة مطردة مثل القوانين التي يخضع لها القمر في تزايده وتناقصه ، والليل والنهار في اختلافهما باختلاف الفصول ... وهذه الحقيقة لم يصل اليها تفكير أحد من قبل ابن خلدون . فضلا عن أن نقيضها كان هو المسيطر على أفكار الباحثين جميعا . ذلك أن الظواهر الاجتماعية كان يعتقد أنها خارجة عن نطاق القوانين ، وخاضعة لرغبات القادة وتوجيهات الزعماء والمشرعين ودعاة الاصلاح الاجتماعي . ومن هنا لم يكن من الميسور حينئذ أن تدرس الظواهر الاجتماعية على النحو الذي تدرس به في ضوء المناهج الحالية لعلم الاجتماع بصورته الحديثة[٢] .

وعلى ذلك فان المفكرين الذين سبقوا ابن خلدون أو عاصروه لم يتناولوا قضايا ومسائل علم الاجتماع من قريب أو من بعيد .

---

(٢) دكتور زيدان عبد الباقي : التفكير الاجتماعي ، نشأته وتطوره . الطبعة الثالثة ، مكتبة غريب ، القاهرة ١٩٨١ ، صفحات ١٢٠ ـ ١٢٥ .

٢ ـ نشأة أوجيست كونت :

ولد أوجيست كونت سنة ١٧٩٨ ميلادية في فترة امتلأت بالمفكرين الاجتماعيين الذين يعرفوا بأصحاب النظريات الخيالية ، والتي تأثر رجالها بالاحوال الاقتصادية السائدة ، وما أحدثته الثورة الفرنسية من تخلخل اقتصادي وسياسي • غير أنهم جانبوا الصواب في أسس دراساتهم ومناهج بحوثهم • كما تناولوا كثيرا من المسائل بأسلوب فلسفي في ضوء مبادىء وأسس يستحيل تحقيقها • وأشهر رجال هذه الطائفة « سان سيمون » وشارل فوريز Fourièr وكابت Cabet وقد ذهب الاخيران الى محاولة تطبيق الافكار الشيوعية تطبيقا عمليا • ولكن محاولتهما ـ لحسن الحظ ـ باءت بالفشل •

على حين كان سان سيمون واقعيا بعض الشيء ومتفائلا ، حيث نظر الى تطور الانسانية نظرة تقوم على دراسة الواقع ، وعلى اشتقاق التيار الفكري والعلمي من أحكام الماضي وحقائقه • كما كان يؤمن بفكرة التقدم(٣) ، ايمانا شديدا ، حيث أكد أن الانسانية تسير دائما نحو التقدم المطرد ، والسعادة الحقة ، وأن « العصر الذهبي للانسانية لم يكن أبدا وراء ظهورنا ولكنه ماثل أمامنا ، ماثل في تحسن الوضع الاجتماعي ، فآباؤنا لم ينعموا به أبدا ، غير أن أطفالنا سوف يسعدون يوما به ، وعلى عاتقنا يقع عبء تمهيد الطريق أمامهم اليه »(٤) وقد استعرض سان سيمون في مؤلفه عن اعادة تنظيم المجتمع الاوروبي ،

---

(٣) De la Reorganization de la Société Européenne, 1814 in Oeuvres de Simon et d'Enfantin. T.XV.

(٤) «L'age d'or du genve humain né si point derriére nous es au- devant' il est dans la perfection de l'ordre social, nos péres ne l'ont point vu, nos enfants y arriveront un jour; C'est a nous de leur en Frayer La rout».

استعرض التطور التاريخي للانسانية ... وكان يومئذ أوجيست كونت يعمل سكرتيرا له ، ولا سيما في الفترة التي طالب فيها سان سيمون بادخال جميع العلوم في وحدة منهجية ، حيث تتضح فائدتها ، وللتعرف على أساسها المشترك الذي يراه وهو « العلم العام » أو « الفلسفة الوضعية » وقد أكد « دوركايم » أن هـذه الفكرة هي التي مهدت الطريق الى فلسفة « كونت » الوضعية .

ويلاحظ أن كلمة « وضعي » Positif عند سان سيمون تعني «فعال» Actif وملازم لطبيعة الشيء Immanent ومستقل استقلالا ذاتيا Autonome على حين أن كلمة « فلسفة » تعني دراسة النشاط الانساني في جانبيه الجمعي والفردي ، وجانبيه المادي والروحي . ومن هنا فقد أطلق على الدراسات التي تتناولهـا الفلسفة الوضعية اسم « علم الانسـان » Science de l'homme أو الفزيولوجيا الاجتماعية Physiologie Sociale وعلى ذلك فان الفلسفة الوضعية عند سان سيمون تعني علم الاجتماع .

وكان « كونت » بالاضافة الى هذا المناخ العلمي الاجتماعي الذي يعيش فيه قد تخرج من مدرسة الهندسة العسكرية بباريس ، وكان قد كتب كثيرا من المقالات أثناء زمالته العلمية لسان سيمون . وقد كتب مرة عن زمالته العلمية هذه لسان سيمون ، الى صديقه « ڤالا » Valat في ١٧ ابريل سنة ١٨١٨ يقول « ان اتصالي بسان سيمون قد علمني ما لم يكن في امكاني أن أعرفه لو قضيت عشرات السنين في أحضان الكتب وحدها ... » ثم عاد بعد انفصاله عنه وهاجمه هجوما قاسيا ، وأنكر أي فضل له عليه .

وهكذا تهيأت الظروف العلمية والعمليـة لأوجيست كونت لكي يتوصل الى ابتكار علم الاجتماع ، من حيث الفرص التعليمية التي أتيحت له في مدرسة الهندسة العسكرية ، وهي تشبه كليات الهندسة في أنوعت

الحالي ... بالاضافة الى المناخ العلمي الذي هيأه لـه سان سيمون ومعاصروه واهتمام سان سيمون بنفس الموضوعات الاجتماعية، وتكليف الثورة الفرنسية لأوجيست كونت بالاشتراك في لجان اصلاح المجتمع الفرنسي واعادة تنظيمه .

ثانيا ـ الانتاج العلمي لابن خلدون وكونت :

لقد كان لكل منهما مؤلفاته العلمية التي لا تزال موضع دراسة واهتمام الجامعات حتى الآن ، وهي :

١ ـ الانتاج العلمي لابن خلدون :

لقد ألف ابن خلدون كتابه الكبير بعنوان « كتاب العبر ، وديوان المبتدأ والخبر ، في أيام العرب والعجم والبربر ، ومن عاصرهم من ذوي السلطان الاكبر » ويتكون هذا الكتاب من سبع مجلدات أشهرها هو المجلد الاول الذي تطلق عليه اسم « مقدمة ابن خلدون » وهو الذي ينطوي على كافة الدراسات المتعلقة بعلمه المبتكر « علم الاجتماع » ويشتمل على :

(أ) **خطبة الكتاب** أو ديباجته أو افتتاحيته ، وتقع في نحو سبع صفحات ، وقد عرض فيها المؤلف لبحوث المؤرخين من قبله ، وذكر طوائفهم ووجوه النقص في بحوثهم ، وأشار الى الاسباب التي دعته الى تأليف الكتاب كله بمجلداته السبعة ، وبيّن طريقته وأقسامه ... الخ .

(ب) **المقدمة في فضل التاريخ** وتحقيق مذاهبه ، والإلماع لما يعرض للمؤرخين من المغالط والأوهام ، وذكر شيئا من أسبابها ... وتقع في نحو ثلاثين صفحة ، وعنوانها نفسه موضح لما تشتمل عليه .

(جـ) **الكتاب الاول في طبيعة العمران** في الخليقة ، وما يعرض فيها من البدو والحضر ، والتغلب والكسب والمعاش والصنائع والعلوم ونحوها ، وما لذلك من العلل والاسباب • ويقع في نحو ستمائة وخمسين صفحة • وهذا القسم الرئيس فيما نسميه الآن « مقدمة ابن خلدون » •

ويشتمل هذا القسم الرئيس على ما يأتي :

ـ تمهيد يقع في نحو سبع صفحات ، تكلم فيه أيضا عن التاريخ وموضوعه وأسباب الخطأ فيه وفي رواية حوادثه • والاسباب التي دعته الى البحث الذي يتضمنه الكتاب الأول من مؤلفه الكبير ، وبين البحوث الستة الرئيسية التي يشتمل عليها الكتاب وموضوع كل بحث •

ـ ستة فصول رئيسية تدرس ظواهر الاجتماع الانساني وهي :

الفصل الاول في العمران البشري على الجملة ويشتمل على ست مقدمات : المقدمة الاولى في أن الاجتماع الانساني ضروري ، والمقدمات من الثانية الى الخامسة ، تتناول بحوثا جغرافية مع التركيز على تأثير البيئة الجغرافية في ألوان البشر وأخلاقهم وطرق معاشهم • بينما تشير المقدمة السادسة الى أمور استطرادية تتعلق بالوحي والرؤيا والمدركين للغيب وما الى ذلك •

الفصل الثاني في العمران البدوي والامم الوحشية والقبائل ، ويشتمل على تسعة وعشرين موضوعا ، تتناول الموضوعات العشر الاولى منها الشعوب البدوية ونشأتها وبعض شئونها الاجتماعية وأصول المدنيات ••• وتعرض الموضوعات التسعة عشر الاخيرة لطائفة من نظم الحكم والسياسة المتعلقة بالشعوب البدوية وغيرها •

الفصل الثالث في الدول العامة والملك والخلافة والمراتب السلطانية ، ويشتمل على أربعة وثلاثين موضوعا ، تعرض جميعها لنظم الحكم وشئون السياسة .

الفصل الرابع في البلدان والأمصار وسائر العمران ، ويشتمل على اثنين وعشرين موضوعا تعرض لنشأة المدن والأمصار ومواطن التجمع الانساني ، وما تمتاز به المدن عن غيرها من مختلف الوجوه العمرانية والاجتماعية والاقتصادية واللغوية .

الفصل الخامس في المعاش ووجوهه من الكسب والصنائع وما يعرض في ذلك كله من الاحوال ويشتمل على ثلاثة وثلاثين موضوعا ، تعرض كلها لشئون الاقتصاد .

الفصل السادس في العلوم وأصنافها والتعليم وطرقه وسائر وجوهه وما يعرض في ذلك كله من الاحوال . ويشتمل على احدى وستين موضوعا حول مختلف العلوم .

بينما تناول ابن خلدون في بقية المجلدات أمورا شتى تتصل بالتاريخ والادب والأديان وما اليها .

وقد ظل هذا الكتاب مجهولا الى أن ترجم المجلد الاول منه المعروف « بمقدمة ابن خلدون » في منتصف القرن التاسع عشر عندما قام المستشرق الفرنسي « كاترمير » Quatrmere بطبع المقدمة باللغة الفرنسية بعد ترجمتها من العربية ، حيث ظهرت كاملة في فرنسا سنة ١٨٥٨ وذلك في نفس السنة التي ظهرت فيها أول طبعة للمقدمة باللغة العربية في مصر ،

حيث نقلها الشيخ نصر الهوريني[٥] عن النسخة الفارسية • وهي النسخة التي أهداها ابن خلدون لأبي فارس عبد العزيز سلطان المغرب الاقصى في زمانه •

ويلاحظ أنه لم يكتب الذيوع والانتشار لمقدمة ابن خلدون قبل ذلك ، الا بعد أن تناولها « فون هامر » و « شولتز » حيث نشر الاول رسالة بالالمانية سنة ١٨١٢ عن « اضمحلال الاسلام بعد القرون الثلاثة الاولى للهجرة » أشاد فيها بابن خلدون وبحوثه في المقدمة • وأطلق عليه لقب « مونتسكيو العرب » ثم نشر مقالا في المجلة الآسيوية باللغة الفرنسية سنة ١٨٢٢ كشف فيه عن ألمعية ابن خلدون وأصالة بحوثه في المقدمة وعمق تفكيره وسلامة نقده • وذهب الى أنه لا يكاد يوجد من بين مؤلفات الشرق ما يستحق أن يترجم ترجمة كاملة ، كما تستحق ذلك مقدمة ابن خلدون • ونشر « شولتز » سنة ١٨٢٥ مقالا في المجلة الآسيوية أيضا درس فيه مقدمة ابن خلدون وأبان عن مبلغ أهميتها وخطرها ، ودعا فيه الى طبع المقدمة وترجمتها ترجمة كاملة ••• وقد تحققت تلك الدعوة بواسطة « كاترمير » كما قدمنا •

هذا ولو أن ابن خلدون أنشأ مدرسة من المريدين ــ كما هي عادة مفكري الاسلام يومئذ ــ لمواصلة وتنمية أفكاره وآرائه ، لما كان هناك داع لجهود أوجيست كونت • والسؤال الذي ليست له اجابة مقنعة ، وربما ليست له اجابة على الاطلاق هو : لماذا لم تكن لابن خلدون مدرسة فكرية وهو ما هو بهذا الحجم العلمي الكبير ؟•••

---

(٥) كتاب « المبتدأ والخبر في العرب والعجم والبربر ، ومن عاصرهم من ذوي السلطان الاكبر » الطبعة التي أشرف عليها الشيخ « نصر الهورني » ، القاهرة ١٨٥٨ والمودعة بدار الكتب بالقاهرة •

وهل يرجع ذلك الى أن أفكاره كانت مرفوضة مثلا ؟ أو لان معاصريه حصدهم وباء الطاعون ؟ أو لان هذا الكتاب لم يأخذه معه الى مصر ؟ أو لان ابن خلدون كان يسبق بفكره معاصريه بمئات السنين ، وبالتالي لم يكن مفهوما منهم ؟... الخ .

٢ ـ الانتاج العلمي لأوجيست كونت :

كتب أوجيست كونت كثيرا من المقالات العلمية التي نشرت في مجلة « المنظم » التي كان يصدرها سان سيمون . وكتب أيضا مقالا سنة ١٨٢٢ بعنوان « نشرة عن الاعمال العلمية الضرورية لاعادة تنظيم المجتمع »(٦) وفي هذا المقال أوضح أنه نتيجة لطبيعة التفكير الانساني نفسه ، فان لكل فرع من فروع معرفتنا مسار يمر فيه في سيره عبر التاريخ بثلاث حالات نظرية مختلفة هي : الحالة التيولوجية أو الخيالية، ثم الحالة الميتافيزيقية أو المجردة ، وأخيرا الحالة العلمية أو الوضعية . وتلك الحالات التي اعتبرها قانونا ـ أو التي زعم أنها قانونا ـ هي التي مهدت له الطريق للوصول الى ابتكار علم الاجتماع .

وبعد انفصاله عن سان سيمون بعد زمالة علمية استمرت سبع سنوات ، وكان عمره قد أصبح ٢٧ سنة ، عكف « كونت » على القراءة والتحصيل والقاء المحاضرات . ومكث ست سنوات من ١٨٤٨ الى١٨٥٤ يعد في مؤلفه الكبير الذي يتكون من أربعة أجزاء بعنوان « منهاج السياسة الوضعية »(٧) وقد تناول في هذا المؤلف موضوعات متنوعة

---

(٦) Prospectus des travaux scientifiques nécessaires pour réoganiser la société.

(٧) Le Systeme de politique positive.

تدور حول نظام التربية الوضعية ، والاجتماع في حالتيه : الساكنة ـ أو الاستاتيكية ـ Statique Sociale والمتحركة ـ أو الديناميكية الاجتماعية ـ Dynamique Sociale .

وفي الحالة الساكنة يعطي نظرية وضعية لكل من نوع من الخصائص الجمعية في المجتمعات الانسانية ، فيتناول : الدين ، الملكية ، الاسرة ، اللغة ، والتنظيم الطبقي بالدراسة والتحليل ... وفي الحالة المتحركة يتناول فكرة التقدم الانساني بالدراسة والتحليل العميقين • واختتم هذا المؤلف بتحديد معالم نظريته في مستقبل الانسانية والديانة العالمية ... الخ • وقد صدرت له بعد ذلك مؤلفات عديدة ، ولكنها كلها كانت أقل أهمية من مؤلفه الكبير هذا •

وكل هذه المؤلفات تطبع ـ ولا تزال ـ وتوزع في كل دول العالم ، حيث ساعدت الطباعة التي اكتشفت بواسطة « جوتنبرج » بعد وفاة ابن خلدون بخمسين عاما تقريبا ، على ذيوع وانتشار مؤلفات أوجيست كونت ، بعكس الحال مع ابن خلدون •

ثالثا ـ الاسباب التي دعتهما لانشاء علم الاجتماع :

كانت لكل منهما منطلقاته في هذا الصدد ، فضلا عن اختلاف أهداف كل منهما من وراء ابتكار هذا العلم ، مع اتحاد الاسباب والدوافع التي دفعتهما الى البحث والتنقيب •

١ ـ الاسباب التي دعت ابن خلدون لانشاء علم الاجتماع :

دعاه الى ذلك رغبته في تخليص البحوث التاريخية من الاخبار الكاذبة ، عن طريق ابتكار أداة يستطيع بواسطتها المؤرخون أن يميزوا بين ما يحتمل الصدق وما لا يمكن أن يكون صادقا من الاخبار المتعلقة

بواقعات العمران ، فيستبعدوا ما لا يحتمل الصدق استبعادا تاما من أول الامر ، وتقتصر جهودهم وتحرياتهم التاريخية على القسم الثاني وحده ، وهو ما يحتمل الصدق ، أي ما يمكن وقوعه في شأن من شئون الاجتماع الانساني ، وحوادثه .

٢ ـ الاسباب التي دعت كونت لانشاء علم الاجتماع :

على حين أن ما دعا أوجيست كونت الى انشاء دراسة جديدة لظواهر الاجتماع هو حرصه على اصلاح المجتمع وتخليصه من عوامل الاضطراب والفساد . وذلك لانه رأى المجتمع الانساني في عصره قد شمله الفساد من مختلف جوانبه . وكانت أسباب هذا الفساد ترجع ـ في نظره ـ الى فساد الاخلاق ، وأن السبب في فساد الاخلاق يرجع الى فساد أساليب التفكير ، واضطراب طرق الفهم . وكان دليله على ذلك أن الناس في عصره كانوا يأخذون بمنهجين متناقضين كل التناقض في فهم الاشياء :

١ ـ فاذا كان الناس بصدد ظاهرة من ظواهر الطبيعة ، فانهم يحاولون فهمها على أساس الطريقة الوضعية ـ أو العلمية ـ وهي الطريقة التي تعتمد البحث عن طبيعة الظاهرة وأسبابها المباشرة وما تخضع له من قوانين .

٢ ـ واذا كانوا بصدد ظاهرة من ظواهر الاجتماع الانساني فانهم يسلكون حيالها طريقا آخر ، أطلق عليه « كونت » اسم « الطريقة الدينية الميتافيزيقية » وهي الطريقة التي يصرف فيها النظر عن طبيعة الظاهرة وأسبابها المباشرة وما تخضع له من قوانين ، وتفهم على أنها :

(أ) تتاج قوة مشخصة مريدة كقوة الآلهة ، وتلك هي ما سماها بالطريقة الدينية .

(ب) أو من تتاج قوة مبهمة ميتافيزيقية متلبسة بالظاهرة نفسها

كقوة النفس في الانسان أو الانبات في البينات ، وهذه هي ما سماها بالطريقة الميتافيزيقية .

ولما كانت هاتان الطريقتان متناقضتين كل التناقض ، فقد أدى وجودهما واستمرارهما جنبا الى جنب في أذهان الناس ، والتجاؤهم اليهما معا في تفسير الظواهر الاجتماعية ، أدى الى أحداث اضطراب كبير في التفكير الانساني . بل الى احداث أقصى ما يمكن حدوثه من اضطراب في التفكير وفي مصادر المعرفة ، اذ ليس بعد قبول النقيضين خلل في التفكير ، ولا اضطراب في الفهم ، وترتيبا على ذلك وصف حالة التفكير الاجتماعي في فرنسا يومئذ « بالفوضى العقلية » .

وعلى طريقة « كونفوشيوس » في ترتيب القضايا والنتائج بعضها على بعض يقول « كونت » : ان هذه الفوضى العقلية قد أدت الى فساد الاخلاق والسلوك ، لان كل ما يعتري الفكر من اضطراب وفساد ، يتردد صداه ـ في نظر كونت ـ في الاخلاق والسلوك . وقد أدى فساد الأخلاق والسلوك ـ وتلك هي النتيجة الثانية ـ الى فساد شامل في مختلف فروع الحياة الاجتماعية ـ لماذا ؟... لان هذه الحياة قائمة على دعائم من الاخلاق والمثل ، فبفساد هذه الدعائم وانهيارها ، تفسد جميع فروع الحياة الاجتماعية وتتقوض أركانها ، وهذا هو حال المجتمعات الاسلامية والعربية . وذلك يذكرنا بقول الشاعر العربي أحمد شوقي :

انما الأمم الاخلاق ما بقيت فان همو ذهبت أخلاقهم ذهبوا

وكان من رأي « كونت » أنه لا سبيل الى الاصلاح الاجتماعي ، الا باصلاح الفكر الانساني ، فبصلاح ما أفسد من الاخلاق ، تصلح ـ بالتبعية ـ جميع فروع الحياة الاجتماعية ، وترشد مختلف أنماط السلوك ، ويزداد النسق الاجتماعي تضامنا وتماسكا .

واستقر رأي « كونت » على أن القضاء على تلك الفوضى العقلية والنتائج المترتبة عليها يحتاج الى القضاء على الطريقة المتناقضة في التفكير وفهم الاحداث والوقائع والاشياء • ووجد « كونت » أن هناك ثلاثة وسائل لتحقيق هذا الهدف وهي :

١ ـ العمل على التوفيق بين طريقتي التفكير والفهم السائدتين في زمانه ، بحيث لايحدث وجودهما معا ـ في أذهان الناس ـ اضطرابا في تفكيرهم • ولكنه اكتشف استحالة ذلك من الناحية العملية ، لاننا بصدد طريقتين متناقضتين كل التناقض من جميع النواحي ، احداهما وهي الطريقة الوضعية التي لا تبحث الا عن السبب المباشر للظاهرة • بينما الاخرى وهي الطريقة الدينية الميتافيزيقية لا تبحث الا عن سببها غير المباشر ، وعن علتها الاولى التي تتمثل في قوى شخصية مريدة ، أو في قوى مبهمة :

ـ احداهما تقوم على الايمان بأن الظواهر خاضعة لقوانين ، والاخرى تقوم على الاعتقاد بأنها غير خاضعة لقوانين •

ـ احداهما لا تبحث الا عن القوانين ، والاخرى تبحث عن كل شيء الا هذه القوانين •

ـ احداهما توجه كل عنايتها الى دراسة الظاهرة نفسها ، والاخرى تقطع النظر عن الظاهرة وتتجه الى البحث عن موجدها الاول أو سببها الاول •

ومن الواضح أن هاتين الطريقتين ، وقد بلغ الخلاف بينهما هذا المبلغ ، من المستحيل التوفيق بينهما • وبالتالي يستحيل اجتماعهما على أية صورة في أذهان الناس ، بدون احداث اضطراب كبير في التفكير ، وبدون عائد ايجابي برغم ذلك •

٢ ـ أو القضاء على الطريقة الوضعية في فهم الاشياء ، وجعل الناس يفهمون جميع الظواهر طبقا للطريقة الدينية الميتافيزيقية • فان هذه الطريقة ـ كما يقول كونت ـ اذا أمكن تحققها ، تتحقق الوحدة في الفكر ، وتزول أسباب الاضطراب • ولكنه اكتشف عدم امكانها عمليا ، لان الاخذ بها يحتاج الى أن نمحو من أذهان الناس كل ما توصلت اليه العلوم الرياضية والطبيعية من نتائج وقوانين ، على اعتبار أن هذه النتائج والقوانين هي التي جعلت الناس يفهمون جانبا من الظواهر طبقا للطريقة الوضعية • وعلى ذلك فانه على فرض تحقيق هذا « المستحيل » فمن المستحيل تجميد الفكر الانساني على هذه الحال • ومن المستحيل ـ أيضا ـ أن يحال بينه وبين الاتجاه الى كشف القوانين التي تخضع لها الظواهر الطبيعية • وبالتالي سنعود مرة أخرى ـ نتيجة لذلك ـ الى الفوضى العقلية التي أردنا تخليص الناس من أوزارها •

٣ ـ أو القضاء على الطريقة الدينية الميتافيزيقية في فهم الاشياء وجعل الناس يفهمون جميع الظواهر الطبيعية والاجتماعية طبقا للطريقة الوضعية •

ولم تبق أمام « كونت » الا هذه الطريقة •

ولكنه تبين ـ أيضا ـ أنها غير ممكنة الا اذا فهم الناس الظواهر الاجتماعية طبقا للطريقة الوضعية • ولانهم كانوا الى عهده ـ وطبقا لروايته ـ يفهمون جميع الظواهر الكونية طبقا للطريقة الوضعية ، ويفهمون الظواهر الاجتماعيةطبقا للطريقة الدينية الميتافيزيقية • وفي هذا يقول : انه اذا أمكننا جعل الناس يفمهون الظواهر الاجتماعية بالطريقة نفسها التي يفهمون بها الظواهر الكونية وهي الطريقة الوضعية ، فانه بذلك يتحقق الانسجام في التفكير ، ويصبح في الامكان الاتجاهبالتفكير الى فهم الوقائع والاحداث والظواهر على طريقة واحدة •

بيد أنه تأكد أ نالناس لا يمكن أن يفهموا الظواهر الاجتماعية طبقا للطريقة الوضعية الا اذا توافر شرطان هما :

ـ الاول أن تسير هذه الظواهر ـ في الواقع ونفس الامر ـ وفق قوانين ، لا وفق الأهواء والمصادفات ، لان فهم الشيء بطريقة وضعية هو عبارة عن فهم القانون الذي يخضع له . فاذا كان الشيء بحسب طبيعته غير خاضع لقوانين ، فانه من المستحيل أن يفهم فهما وضعيا . وهذا الشرط ـ من وجهة نظر كونت ـ كان ـ ولا يزال ـ متوافرا في الظواهر الاجتماعية باعتبارها جزءا من الكون ، وكل أجزاء الكون تخضع لقوانين ولاتخضع للاهواء والمصادفات .

ـ والثاني أن تكون هذه القوانين معروفة للناس ليتمكنوا من فهم الظواهر الاجتماعية ، وفق ما تضعه هذه القوانين من حدود ، وما ترسمه من معالم .

ولكن معرفة الناس لهذه القوانين لا تتحقق الا اذا كشف البحاث عن هـذه القوانين . ولا يمكن الكشف عنهـا الا اذا درست الظواهر الاجتماعية دراسة وضعية ، تهدف الى بيان طبيعتها والعلاقات التـي تربطها بعضها ببعض ، وتربطها بغيرها . وما ينجم عن هذه العلاقات من نتائج في نشأة هذه الظواهر وتطورها واختلافها باختلاف المجتمعات والازمان .

وعلى هذه الدراسة يتوقف اذن اصلاح الفكر وانسجامه . وعلى اصلاح التفكير يتوقف اصلاح الاخلاق ، وعلى اصلاح الاخلاق يتوقف الاصلاح الاجتماعي ، الذي كان « كونت » مطالبا بايجاد السبل اليه . فقد قام هو بنفسه بانشاء هذه السبل ، أي بدراسة الظواهر الاجتماعية دراسة وضعية تؤدي الى الكشف عمـا تخضع له هذه الظواهر مـن قوانين .

ومن هنا اعتبر دراسته هذه للظواهر الاجتماعية بهذا الأسلوب ، اعتبرهـا علما جديدا وأطلق عليه اسم « علم الطبيعـة الاجتماعية » Physique Sociale وبيّن غرضه بأنه : الكشف عن طبيعة الاجتماع الانساني ، ووصفه بأنه يشبه علم الطبيعة في الكائنات الاخرى • ثم عاد وأطلق عليه اسم « علم الاجتماع »[٨] Sociologie .

وهذه الكلمة « علم الاجتماع » Sociologie مؤلفة من مقطعين أولهما Societas وهي كلمة لاتينيـة معناها « الجماعـة » وثانيهما Logos وهي كلمة يونانية معناها « علم أو بحث » وبذلك توصل الى علم الاجتماع ، وهو صاحب الفضل في هذه التسمية •

وبذلك يتضح لنا أن كلا من ابن خلدون وأوجيست كونت ، قد رأى ضرورة انشاء علم جديد لدراسة الظواهر الاجتماعية • وأن كليهما رأى أن يكون هذا العلم موضوعيا ، يرمي الى الكشف عن طبيعة هذه الظواهر ، وما تخضع له من قوانين • وأن كليهما ــ أيضا ــ قد توصل الى ابتكار هذا العلم منفصلا عن الآخر • وأن أوجيست كونت ــ بالرغم من ترجمة مقدمة ابن خلدون في عصره ــ لم يأخذ شيئا من هذه المقدمة •

ومع أن النتيجة التي توصل اليها كل منهما واحدة ، وهي ابتكار علم جديد يتناول الظواهر الاجتماعية بالدراسة الموضوعية للكشف عما بينها من علاقات وما يحكمها من قوانين ، فانه توجد بينهما بعض الفروق وهي :

---

(٨) Timasheff, N.S. : Sociological Theory, Its Nature and Growth. Second printing, Radom House. N.Y., 1967, ch. L.

١ ــ الاول أن الاسباب التي دعت ابن خلدون الى انشاء هــذا العلم ، غير الاسباب التي دعت أوجيست كونت اليه ، ويمكن ايضاح ذلك على النحو التالي :

(أ) فقد دعا ابن خلدون الى انشاء علم الاجتماع ــ أو علم العمران البشري كما سماه ــ ما رآه من تحفظ المؤرخين وعدم تمييزهم بين الصحيح والكاذب من أخبار التاريخ المتصلة بشئون الاجتماع ، وحرصه على انشاء أداة تعصمهم من هذه الاخطاء . ومما تجدر الاشارة اليه أن الاسباب التي استند اليها ابن خلدون أسباب واقعية صحيحة . فعلم التاريخ كان الى عهده مملوءا بالاخطاء . ومعظم هــذه الاخطاء كان منشؤها الجهل بالقوانين التي تخضع لها الظواهر الاجتماعية .

(ب) وقد دعا أوجيست كونت الى انشاء هذا العلم ما رآه ــ أو خيل اليه ــ من اضطراب الناس في فهم الاشياء وحرصه على تحقيق الانسجام والوحدة في تفكيرهم . ويلاحظ أن هذه الاسباب شبه خيالية ــ وليست واقعية مثلما هي لدى ابن خلدون ــ بل يمكن القول انــه استمدها من فلسفته ومن فهمه الخاص لتطور التفكير الانساني ، ومن مبادئه المبيتة من قبل بمعنى أنه لم يستمدها من الواقع ولا من الملاحظة الموضوعية لحقائق الاشياء . ذلك أن زعمه بأن جميع الناس في عصره يفهمون ظواهر الطبيعة فهماً وضعيا لم يتحقق لا في عصره ، ولا في العصر الحالي ، حيث لا يزال كثير من الناس يفهمون الظواهر الطبيعية فهماً غير علمي . وكذلك زعمه بأن جميع الناس يفهمون الظواهر الاجتماعية فهماً دينيا ميتافيزيقيا غير صحيح . فقد كان في عهده كثير من المستنيرين يفهمون هذه الظواهر فهماً علميا .

٢ ــ والثاني أن ابن خلدون كان أكثر تلمسا للحياة الواقعية وأشد اعتمادا على التجربة الاجتماعية ، سواء في بحوثه الاجتماعية أو في بحوثه التاريخية ..

بينما كان أوجيست كونت خياليا ، حيث تصور أنه أول من توصل الى علم الاجتماع • في الوقت الذي كان ابن خلدون قد سبقه اليه بنحو خمسة قرون من الزمان • فضلا عن الدراسات والنتائج الاجتماعية الموضوعية التي توصل اليها زميله ــ ولا نقول أستاذه ــ الفيلسوف الفرنسي سان سيمون • وكذلك فلسفة التاريخ لدى « كوندرسيه وموتنسكيو » والدراسات الاجتماعية « لكيتليه » ومن اليهم من علماء الاقتصاد مثل علماء مدرسة « الفزيوقراط » في فرنسا وعلماء مدرسة الاحرار بزعامة آدم سميث في انجلترا ، وأيضا الدراسات السكانية لمالتس ••• كل تلك الدراسات الهامة التي مهدت الطريق لأوجيست كونت لكي يضع لها اللمسات الاخيرة ، ثم يعلن توصله ــ وحده ــ الى علم جديد وهو علم الاجتماع •

رابعا ــ موضوع العلم عند ابن خلدون وكونت :

لقد اتفق كلاهما مع الآخر في هذا المجال ، الى أن موضوع علم الاجتماع هو دراسة الظواهر الاجتماعية وما بينها من علاقات ومايحكمها من قوانين • ومن المثير للدهشة أن كلاهما بالرغم من معرفته للظاهرة الاجتماعية ، فان واحدا منهما لم يقم بتعريفها كما فعل « اميل دوركايم » بعد ذلك ، اذ عرفها بأنها « كل ضرب من السلوك يباشر نوعا من القهر الخارجي على الافراد » أو هي : « كل سلوك يعم المجتمع بأسره ، وكان ذا وجود خاص مستقل عن الصور التي يتشكل فيها أو بها في الحالات الفردية »[٩] •

---

(٩) دكتور زيدان عبد الباقي : التفكير الاجتماعي ••• مرجع سابق ، صفحة ٣٠١ •

واذا كان ابن خلدون قد اكتفى ـ في مقدمته ـ بالتمثيل لها بقوله : « **لما كانت طبيعة التاريخ أنه خبر عن الاجتماع الانساني ، الذي هو عمران العالم وما يعرض لطبيعة ذلك العمران من الاحوال مثل التوحش والتانس والعصبيات وأصناف التغلبات للبشر بعضها على بعض ، وما ينشأ عن ذلك من الملك والدول ومراتبها ، وما ينتحله البشر بأعمالهم ومساعيهم من الكسب والمعاش والعلوم والصنائع وسائر مايحدث في ذلك العمران بطبيعته من الاحوال** » فان « كونت » أيضا قد اكتفى **بأن قرر** بأنه **اذا كان علم النفس ليس ذا** موضوع مستقل لان مسائله وظواهره يتصل بعضها ببعض ، ويتوقف على شؤون الجسم وأجهزته ووظائف الاعضاء وأعمال الجهاز العصبي · وهذا القسم يدخل في نطاق العلوم الطبيعية ، ويتصل معظمها ويتوقف على الحياة الاجتماعية وشؤون الاجتماع · وهذا القسم يجب أن يلحق بعلم الاجتماع · فانه ـ ترتيبا على ذلك ـ قرر « **ان الانسانية كلها هي موضوع علم الاجتماع ، وهي الحقيقة الجديرة بالبحث من وجهة نظره** »(١٠) ·

خامسا ـ أغراض علم الاجتماع عند ابن خلدون وكونت :

والاغراض المباشرة لعلم الاجتماع متفقة ـ أيضا ـ لدى كليهما ، على حين أن الاغراض غير المباشرة مختلفة لدى كل منهما ·

(أ) فابن خلدون كان يرمي الى أن تكون الدراسة في نهاية الامر وسيلة لتصحيح الاخبار التاريخية ·

(ب) وأوجيست كونت كان يرمي الى أن تكون هذه الدراسة في نهاية الامر وسيلة للاصلاح الاجتماعي ، عن طريق اصلاح الفكر ، فاصلاح الاخلاق ·

---

(١٠) دكتور زيدان عبد الباقي : التفكير الاجتماعي ، مرجع سابق ، صفحة ٢٤٤ ·

سادسا ـ منهاج الدراسة لدى ابن خلدون وكونت :

يتفق ابن خلدون وكونت على أن المنهاج العلمي هو الاساس الذي يقوم عليه علم الاجتماع ، أي المنهاج الذي يعتمد على الملاحظة العلمية والتجربة والاستقراء ، على غرار الاسلوب السائد في العلوم الكونية.. غير أن كلاهما لم يلتزم بقواعد المنهاج الذي أعلنه ، اذ يلاحظ ابتعاد ابن خلدون عن هذا المنهاج ابتعادا شكليا ، بحيث يمكن تداركه ، على حين أن « كونت » لا نقول ـ ابتعد ـ وانما نقول ـ انحرف ـ انحرافا جذريا عن قواعد المنهاج العلمي بصورة يستحيل معها تدارك الموقف الا بهدم كل ما جاء به من نظريات وتعميمات وانشائها على نفس منهجه من جديد .

سابعا ـ أقسام الدراسة عند ابن خلدون وكونت :

لقد جاء كل منهما بأقسام تختلف عن الآخر ، وان كانت في مجموعها متكاملة .

١ ـ فبالنسبة لابن خلدون ، فانه قد قسم علم الاجتماع أقساما ينطوي كل قسم منها على طائفة من الظواهر الاجتماعية المتجانسة في طبيعتها . وأوقف على كل طائفة فصلا معينا أو جانبا من أحد الفصول في مقدمته .

ومما تجدر الاشارة اليه أن ابن خلدون قد ركز في دراسته لكل طائفة من هذه الظواهر على أن يمزج بين النظريات التطوريةوالدراسات التشريحية . ولعلنا اذا استعرنا مصطلحات « كونت » نقول : ان ابن خلدون قد عني في دراسته لكل طائفة متجانسة من الظواهر الاجتماعية بالمزج بين ناحيتها الاستاتيكية (الساكنة) والديناميكية (المتطورة او المتحركة) لكي يتناول بالدراسة عناصر كل ظاهرة وأجزاءها ووظائفها ،

وما الى ذلك من مسائل الدراسة الاستاتيكية (الاستقرارية أو التشريحية) ويدرس في الوقت نفسه ديناميكيتها (تطورها) والقوانين التي تخضع لها في هذا التطور ، ان كان لها ناحية تطورية • ومن ثم فهو لم يفصل بين هاتين الناحيتين • ولم يجعل لكل ناحية منهما قسما مستقلا في دراسته كما فعل « كونت » وانما أقام تقسيمه لبحثه على أساس تقسيم الظواهر الاجتماعية الى طوائف تشتمل كل طائفة منها على مجموعة من الظواهر المتجانسة في الطبيعة والاتجاه • وكان تطبيقه لهذا التقسيم والالتزام به في البحث دقيقا كل الدقة ، بمعنى أنه كان كلما تناول ظاهرة أو أكثر من هذه الظواهر قتلها بحثا من جانبيها الاستاتيكي (التشريحي) والديناميكي (التطوري) •

٢ ــ وبالنسبة لأوجيست كونت ، فقد قسم علم الاجتماع الى شعبتين من خلال دراسته لنظام التربية الوضعية والاجتماع في حالتيه الساكنة أو الاستاتيكية الاجتماعية Statique Sociale والمتحركة أو الديناميكية Dynamique Sociale وتفصيل ذلك كما يلي :

(أ) ففي الشعبة الاولى وهي « الاستاتيك الاجتماعي » التي تدرس الاجتماع الانساني في تفاصيله ، ومن ناحية استقراره • وهذه الشعبة أيضا تمتاز بخاصيتين اثنتين ــ أيضا ــ وهما :

ــ الاولى منهما وتدرس الاجتماع الانساني في تفاصيله لا في جملته، كما تفعل الشعبة الديناميكية فهي تعرض لكل ناحية من نواحيه على حدتها ، وتدرس كل مجموعة من النظم التي تقوم عليها هذه الناحية ، ثم تنتقل الى الناحية الاخرى وهكذا •

ــ والثانية منهما تدرس الظواهر الاجتماعية من ناحية استقرارها ــ لا من ناحية تطورها ــ بمعنى أنها لا ترمي الى بيان الطريقة التي

تنتقل بها هذه الامور من حال الى حال ، كما تفعل الشعبة الديناميكية . وانما ترمي الى شرح الاجـزاء والعناصر التي تتألف منها الظواهـر الاجتماعية والوظائف التي تقوم بها . وعلاقة هذه العناصر والوظائف ببعضها البعض . فهذه الشعبة في ميادين الاجتماع الانساني تشبه علم التشريح في ميادين الدراسات الطبيعيـة . فكلاهما يرمي الى تشريح الاشياء لبيان أجزائها وطبيعتها والعناصر التي تتألف منها ، وما الى ذلك من الامور . وكلاهما يقطع النظر من ناحية التطور . ولا شأن لـه بدراسة الطرق التي تسير عليها ظواهره في انتقالها من حال الى حال .

(ب) وفي الشعبة الثانية (الديناميك الاجتماعي) اهتم كونت بهذه الشعبة وأوقف عليهـا ثلاثة أرباع جهوده ، اذ هي تدرس الاجتماع الانساني في جملته ومن مختلف نواحي تطوره . ولذلك فهذه الشعبة تمتاز بخاصيتين :

ـ الاولى منهما وتدرس الاجتماع الانساني في جملته دراسةتكاملية بمعنى أنها لا تدرس كل ناحية من نواحيه على حدتها ، وانما تنظر اليه في عمومه بقطع النظر عن تفاصيل الامور التي يتألف منها . ذلـك أن الاجتماع الانساني يتمثـل ـ في نظره ـ في عدة نظم وقواعد منهـا السياسي ، ومنها القضائي ، ومنها الاقتصادي ، ومنها الخلقي ومنهـا الديني ، ومنها الريفي ، ومنها الحضري ... وما الى ذلك . فالديناميك الاجتماعي لا ينظر الى كل مجموعة من هذهالظواهر على حدتها ، ولاشأن له بهذه التفاصيل ، وانما ينظر للاجتماع الانساني في جملته .

ـ والثانية منهما تدرس الاجتماع الانساني من ناحية تطورية ، أي أن غرضها الكشف عن القوانين التي يسير عليها هذا الاجتماع فيانتقاله من حال الى حال .

ولا ريب أن المنهاج الذي سار عليه ابن خلدون هو أفضل المسارين وأدناهما الى المنهاج العلمي الموضوعي . وذلك أنه من المتعذر في علم الاجتماع الفصل بين الناحيتين الاستاتيكية والديناميكية كما فعل « كونت » على اعتبار أن العناصر التي تتكون منها كل ظاهرة اجتماعية والوظائف التي تقوم بها ... كل ذلك وما اليه من الامور الاستاتيكية (التشريحية) التي تؤثر في اتجاه الظاهرة وترسم طريق انتقالها من حال الى حال ، أي تؤثر في اتجاهها الديناميكي ـ كما أن اتجاهها الديناميكي ـ أي انتقالها من حال الى حال ـ يغير من عناصرها وطبيعتها ، وما تقوم به من وظائف. أي تؤثر تأثيرا كبيرا في ناحيتها الاستاتيكية والديناميكية. ومن ثم فان الفصل بين الناحيتين لا يتفق مع القواعد التكاملية ، أو مع ما يعرف حاليا بالمنهاج المجالي . وبالتالي فهو فصل تصنعي لا يتفق مع طبائع الظواهر الاجتماعية .

وقد فطن دوركايم وأعضاء مدرسته الى عدم استقامة هذا الفصل بين الجوانب الاستاتيكية والديناميكية للظواهر الاجتماعية . وذلك من خلال دراساتهم للناحيتين الفزيولوجية والمورفولوجية . وقد ظنوا أنهم بذلك مجددين ، وما علموا أن ابن خلدون قد سبقهم الى ذلك . فقد طالب ابن خلدون بأن يكون بحث الظواهر الاجتماعية في مجموعتين على النحو التالي :

(أ) ظواهر تتعلق ببنيـة المجتمع أو ما تُعرف « بالمورفولوجيا الاجتماعية » وهي مجموعة من الظواهر التي تتصل بالبدو والحضر ، وأصول المدنيات القديمة التي وقف عليها الفصل الثاني من مقدمته ، وتوزيع أفراد الانسانية على المساحة التي تشغلها ، والنظم التي تسير عليها المجتمعات في هجرة أفرادها وكثافتهم وتخلخلهم والمسائل التي تتعلق بتخطيط القرى والمدن ، وقيام الأمصار والشروط التي تتعلق

بمواقعها ومرافقها ، والوظائف التي تؤديها ، حيث بيَّن في الباب الاول أثر البيئة الجغرافية في هذه الظواهر وفي غيرها من شئون الاجتماع . وهي الشعبةالتي أطلق عليها «دوركايم» اسم «المورفولوجياالاجتماعية» La morphologie Sociale أو « علم البنيـة الاجتماعية » وظـن هو ومدرسته ـ كما قدمنـا ـ أنهم أول من أدخلهـا في مسائـل علم الاجتماع .

(ب) ظواهر تتعلق بالنظم العمرانية ، أي النظـم الاجتماعية ، وتختلف هذه النظم باختلاف وجوه النشاط العمراني (الاجتماعي) . ومن هنا فقد تناول بالدراسة كل مجموعة متجانسة فيها على حدة ، حيث خصص الفصل الثالث من مقدمته لدراسة الظواهر السياسية ، والفصل الخامس لدراسة الظواهـر الاقتصادية ، والفصل السادس لدراسة الظواهر التربوية ... وعرض في ثنايا دراساته هذه لكثير من الظواهر الاسرية والاخلاقية والجمالية واللغوية والدينية[١١] .

النتائج التي توصل اليها كل من ابن خلدون وكونت :

لقد توصل كل من ابن خلدون وكونت لنتائج تتفق مع اتجاهات واهتمامات كل منهما ، ومن ثم جاءت النتائج متباينة .

١ ـ فبالنسبة لابن خلدون ، فانه لم يحاول ـ كما فعل كونت ـ أن يستخلص قانونا عاما لناحية « التطور » ولا لناحية « الاستقرار » وانما درس كل مجموعة من مجموعات الظواهـر الاجتماعية على حدتها ،

---

(١١) دكتور زيدان عبد الباقي : التفكير الاجتماعي ... مرجع سابق ، صفحة ١٢٧ وانظر مقدمة ابن خلدون تحقيق الدكتور علي عبد الواحد وافي . مطبعة لجنة البيان العربي ، القاهرة ١٩٦٢ جـ ١ صفحات ١ ـ ٥٥٠ .

واستخلص من دراسته ما هدته اليها ملاحظاته من أفكار وقوانين • مثل تلك التي أوضحناها في الفقرة السابقة •

ومما تجدر الاشارة اليه أن كافة القوانين والآراء التي قدمها ابن خلدون مستمدة من ملاحظاته لظواهر الاجتماع في الامم التي شاهدها أو عرف تاريخها ، بدون أن يستوحي أي مبدأ فلسفي أو يتأثر برأي مبيت من قبل ــ كما سنرى ــ عندما نعرض للنتائج التي توصل اليها « كونت » • وبالتالي فقد كان منهاج ابن خلـدون أدنى الى المنهاج العلمي من منهاج « كونت » وكانت قوانينه أقوى أساسا وأقرب الى طبائع الامور ، والى الواقع من القوانين التي انتهى اليها « كونت »[١٢]•

بيد أن كثيرا من النظريات والقوانين التي توصل اليها ابن خلدون لا تكاد تصدق الا على الامم التي لاحظها ، وهي شعوب العرب والبربر، والشعوب التي تشبهها في التكوين وشئون الاجتماع ، بل لا تصدق على هذه الامم نفسها الا في مرحلة خاصة من مراحل تاريخها ، وهـي المرحلة التي شاهدها أو انتهى اليها علمه •

فقد توصل ابن خلدون الى كثير مـن القوانين والتعميمات التي لا يزال بعضها محل تقدير من وجهة النظر العلمية ، ومن أهمها :

(أ) قانون الاطوار الثلاثة للمجتمع الانساني :

فقد كان ابن خلدون مؤرخا قبل أن يكون عالما اجتماعيا ، وكانت دراسته التاريخية تتركز حول الدولة الاسلامية الاولى • وانتهت بـه الدراسة الى التعرف على أسباب نشأة الدولة وازدهارها واضمحلالها •

---

(١٢) مقدمة ابن خلدون : تحقيق الدكتور علي عبد الواحد وافي ، مرجع سابق جـ ٣ صفحات ٨٩٣ ــ ٩٧٢ •

ومن هذه الدراسة انتهى الى قانون اجتماعي يحكم حركة المجتمعات الانسانية ، وهو « قانون الاطوار الثلاثة للمجتمع الانساني » • ذلك أنه كان يرى أن المجتمع يولد كما يولد الفرد ، ويمر ــ كما يمر ــ الكائن الحي في أدوار الطفولة « النشأة والتكوين » والشباب والنضج والرجولة « الازدهار » ثم الشيخوخة « الهرم » • والمجتمع من وجهة نظره جسم مركب ، والنظم الموجودة به هي بثابة أعضاء هذا الجسم • فالحركة الاجتماعية في نظره مستمرة وتؤدي وظيفتها بشكل آلي ، فهي لا تنقطع ، والمجتمعات الانسانية لا تقف ، والموت الاجتماعي أو فناء نظم المجتمع هو نقطة بداية ونهايــة ، فحيث ينتهي مجتمع ما ، من الضروري أن يستأنف السير مجتمع آخر • والمجتمعات الانسانية وان كانت تخضع بالضرورة لتتابع هذه الادوار ، فان خضوعها ليس بدرجة واحدة • كما أن المدة التي تتطلبها كل مرحلة تختلف عن الاخرى ، وفي هذا المجتمع عن الآخر • بمعنى أن بعض المجتمعات قد تبقى طويلا في مرحلة الطفولة ، أو في مرحلة النضج ••• أو في مرحلة الهرم • وقد يختتم مجتمع ما ، حياته في المرحلة الاولى أو الثانية ••• وقد يقاوم نهايته في احدى المراحل ••• الخ •

ولم يكن تقسيمه للمراحل السابقة على أساس حيوي ، وانما على أساس اجتماعي ، ومن مشاهداته للمجتمع الاسلامي ، حيث :

١ ــ اعتبر مرحلة النشأة والتكوين في جسم الانسان ، وتقابلهــا المرحلة القبلية في المجتمع ، تلك المرحلة التي تقوم على العصبية والفضيلة والدعوة الدينية •

٢ ــ اعتبر مرحلة النضج في جسم الانسان مقابلة لمرحلة التحضر في المجتمع ، حيث الانفراد بالمجد والسلطان •

٣ ــ اعتبر مرحلة الرجولة في الجسم الانساني ، مقابلة لمرحلة الملك في المجتمع حيث الركون الى السكون والدعة ، والاستمتاع بثمرات الحضارة .

٤ ــ واعتبر مرحلة الشيخوخة في جسم الانسان مقابلة لمرحلة الهرم في المجتمع ، حيث يتطرق الفساد الى النواحي الاجتماعية والاقتصادية والاخلاقية والدينية . واذا كانت الشيخوخة في الجسم الانساني تنتهي بموت الانسان . فان الهرم في المجتمع ينتهي أيضا بموت المجتمع ، اذ قال « فان الهرم اذا نزل بدولة ، فانه لا يرتفع » . ومن ثم فلا جدوى من الاصلاح الاجتماعي . والشكل التالي يوضح قانون ابن خلدون :

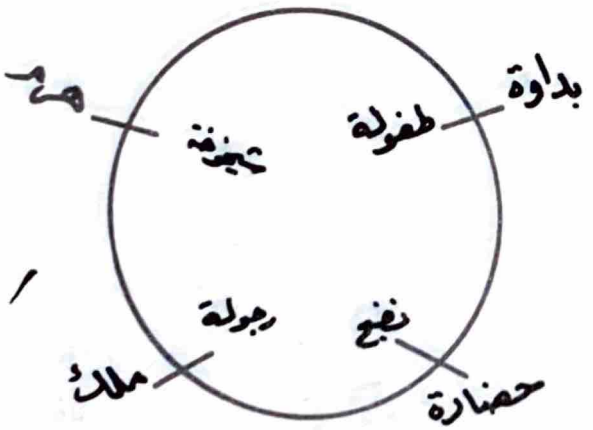

شكل رقم (١)

يبين مراحل المجتمع من البداوة الى الهرم

طبقا لقانون الأطوار الثلاثة

وقانونه هذا يعتمد على التشاؤم ، فقـد أوضح ابن خلدون أن المجتمع يمر بمراحل أربعة ثابتة لا تتغير ، بمعنى أنه يشبه المجتمع بدائرة مقسمة الى أربعة أجزاء ، على :

- **الجزء الاول** منها مرحلة البداوة أو المرحلة القبلية « **عصر النبي عليه الصلاة والسلام** » .
- **وعلى الربع أو الجزء الثاني** مرحلةالحضارة « **عصر الخلفاء الراشدين وجانب من العصر الاموي** » .
- **وعلى الربع أو الجزء الثالث** مرحلة الملك « **العصر العباسي الاول** » .
- **وعلى الربع أو الجزء الرابع** مرحلة الهرم أو الشيخوخة « **العصر العباسي الثاني** » .

وقد استشهد ابن خلدون على ما جاء في الجزء الثالث بقوله تعالى : « ان الملوك اذا دخلوا قرية أفسدوهـا وجعلوا أعزة أهلها أذلة » . وتصور ابن خلدون أن المجتمع يسير على هـذه الدائرة من فترة الى أخرى ، ماراً بالمراحل السابقـة دون تغيير . وتلك أفكار تدل على التشاؤم . فقد كان من رأيه أن التحضر يؤدي الى آثار سيئة في الجسم والعقل ، وأن الترف يؤدي الى فساد الاخلاق نتيجة لجوء الافراد الى السكون والدعة والاستمتاع بطيبات التحضر . ومن هنا تقل درجة الانتماء القومي ، وتصاب مظاهرة الحضارة بالتخلف ، وتضمحل شيئا فشيئا الى أن ينتهي المجتمع .

ومما لا شـك فيه أن دراسات ابن خلدون هـذه ـ كما يقول المستشرقون ـ تميل الى التشاؤم ، ويرجع ذلك الى أن ابن خلدون قد شاهد الدولة الاسلامية ، وكانت ممتدة شرقا وغربا ، شمالا وجنوبا ،

ثم وهي تتمزق الى دويلات صغيرة متصارعة ، واستحالة عودتها منيعة ، كما كانت من قبل . وهذا ما دفعه الى تشبيه الدولة بالفرد . وما دام الفرد مصيره الفناء ، فكذلك الدولة . وهو تشبيه عالم مدقق من حيث الشكل ، أما من حيث المضمون ، فهو تشبيه بين أشياء غير متجانسة ، أو بين كسور مقاماتها مختلفة. ومن هنا فهو تشبيه غير علمي، ولا يؤخذ به في علم الاجتماع المعاصر .

هذا وكانت لابن خلدون نظرية في التقدم ، وأخرى في السياسة ، وثالثة في النواحي الاقتصادية ، ورابعة في النواحي الديموجرافية ، وخامسة في النظام التربوي وسادسة في النظام الاخلاقي[١٣] ... وكانت كلها تميل الى الموضوعية والواقعية ، بحيث لم يعمد فيها الى المبادىء الفلسفية ليستمد منها قانونه ، أو نظرياته كما فعل أوجيست كونت . وكما سنرى في الفقرة التالية .

ولكن الخطأ الذي وقع فيه ابن خلدون ــ في هذا الصدد يرجع الى نقص كبير في العينات التي تمثل المجتمعات التي أبدى رأيه فيها ، كما أنه لم يستقرىء الظواهر الاجتماعية الا عند أمم معينة ، وفي عصور خاصة . وانتهى من هــذا الاستقراء لظواهر قد لا تمثل ــ حتى ــ مجتمعات بحوثه ، الى أفكاروقوانين ظن أنها تصدق في كل زمانومكان ... وخطأ العينات الذي وقع فيه ابن خلدون هذا ، لا يقارن بأخطاء أوجيست كونت التي انحرف فيها عن المنهاج السليم انحرافا جوهريا ، كما أشرنا الى ذلك من قبل .

ــ وبالنسبة لأوجيست كونت ، فقد درس « الديناميك الاجتماعي » وموضوعه دراسة قوانين الحركة الاجتماعية والسير الآلي للمجتمعات

---

(١٣) مقدمة ابن خلدون ، تحقيق الدكتور علي عبد الواحد وافي ، مرجع سابق ، جـ ٤ صفحات ٩٧٤ ــ ١١٣١ .

الانسانية والكشف عن مدى التقدم الذي تخطوه الانسانية في تطورها. وظرية كونت عن الديناميك الاجتماعي تعتمد على نظريتين أخريتين له وهما : قانون الادوار الثلاثة ، ونظرية تطور الانسانية . وفيما يلي عرض موجز لهاتين النظريتين :

(أ) قانون كونت عن الادوار الثلاثة :

انتهى كونت من دراسته للديناميك الاجتماعي الى الكشف عن قانون عام أسماه « قانون الحالات الثلاثة » Loi des trois etas ويتلخص في أن العقل الانساني أو التفكير الانساني قد انتقل في ادراكه لكل فرع من فروع المعرفة خلال ثلاثة أدوار هي :

أ ـ الدور التيولوجي « الديني » أي حينما كان العقل يسير على أسلوب الفهم الديني . أي عندما كان يفسر الظواهر بنسبتها الى قوى مشخصة مريدة خارجة عن الظاهرة نفسها كالآلهة والارواح والشياطين وما اليها . مثل تفسيره لظاهرة النمو بنسبتها الى الله جلت قدرته ، أو الى إله النبات . وهذه الطريقة من الفهم لا تتجه الى فهم الظاهرة ، ولا الى فهم سببها المباشر ، وانما تتجه الى فهم خالقها وسببها الاول ، حيث تنسبها الى قوة مشخصة مريدة خارجة عن الظاهرة . أي أنها لا تبحث عن فهم الظاهرة ، وانما هي محاولة لفهم خالق الظاهرة وموجدها .

ب ـ الدور الميتافيزيقي ، أو « التجريدي » أي حينما كان العقل يفسر الظواهر بنسبتها الى قوى مبهمة غير مشخصة ، أو الى معان مجردة أو قوى ميتافيزيقية وعلل أولى لا يقوى على اثباتها ، مثل تفسير ظاهرة النمو في النبات بنسبتها الى قوة الإنبات المستكنة في ذات النبات . وكذلك التغيرات والتفاعلات التي تحدث في الاجسام نتيجة قوة كيميائية

معينة ، والحياة بمظاهرها المختلفة نتيجة وجود القوة الحيوية. والسلوك والتفاعل الاجتماعي بين الناس نتيجة وجود « ارادة الحياة » أو « الطاقة الحيوية » ... الخ .

جـ ـ الدور الوضعي ـ أو ـ العلمي ، أي بعد أن أصبح العقل يذهب في تفسيره للظواهر بنسبها الى القوانين التي تحكمها والاسباب المباشرة التي تؤثر فيها ، مثل تفسير ظاهرة النمو بنسبتها الى العوامل الطبيعية والكيميائية والقوانين المؤلفة لهذه الظاهرة . وليس بعد هذا الدور ، دور آخر مقبل ، بل ان قصارى الفكر الانساني بعدها أن يرهف الاجهزة التي يعتمدها ، ويدقق في التفاصيل التي يتناولها بالدراسة ، ويكمل النواقص ، ويتفق على ترتيب المعطيات العلمية للتجارب .

وقد رجع كونت الى تاريخ العلوم ، والى تاريخ الانسانية لتأكيد صحة قانونه . ووجد ـ كما زعم ـ بالدراسة والبحث ، أن كل فرع من فروع المعرفة « وهو بصدد تفسير ظواهره » قد مرّ في الدراسة بالدور التيولوجي « المرحلة اللاهوتية » ثم بالدور الميتافيزيقي ، وأخيرا وصلت غالبية العلوم الى الدور الوضعي . وعقد مشابهة بين مراحل الحياة الانسانية ومراحل حياة الفرد ، بمعنى أن المرحلة التيولوجية تشبه مرحلة الطفولة ، والمرحلة الميتافيزيقية تقابل مرحلة المراهقة والشباب . والمرحلة الوضعية التي استقرت عليها الانسانية تشبه مرحلة الرجولة والاكتمال التي يصل اليها الفرد . أي أن الانسانية في أدوار تقدمها ، شأنها شأن الفرد في مراحل نشأته ونموه وتقدمه . فالفرد في نشأته وتكامله يعيد عمر الانسانية ، فهو في طفولته لاهوتي ، وفي شبابه ميتافيزيقي ، وفي رجولته وضعي . وأضاف الى ذلك أن كل مظاهر الفنون والآداب والحضارة والعلوم وما اليها لا يمكن فهمها الا في ضوء

تاريخ التطور العقلي . فالديناميك الاجتماعي شأنه شأن الاستاتيك الاجتماعي يعبر عن مرحلة معينة من مراحل التفكير الانساني .

ومن الواضح أن كل الادلة التي تعسف في الاستشهاد بها تخرج بقانونه من نطاق التطور العقلي ، الى تطور الانسانية عامة ، مما يجعله قانونا ميتافيزيقيا ظاهره البطلان من عدة وجوه :

ـ فليس بصحيح ما زعمه « كونت » في قانونه من أن الانسانية كلها كانت تسير على وتيرة واحدة في فهم الاشياء ، وفي ادراك الظواهر، وفي تطور هذا الادراك . فالمجتمعات الانسانية حتى وقتنا هذا ليست سواء ، فكيف كانت كذلك في عهده ؟

ـ وليس بصحيح ما زعمه « كونت » في قانونه من أن كل حقيقة سلك الفكر الانساني في فهمها هذه السبل الثلاثة ، مرتبة على الصورة التي ذكرها . فمن الحقائق ، ما فهمه الانسان فهماً وضعيا من بادىء الامر ، كبعض الحقائق الرياضية .

ـ وليس بصحيح ما زعمه « كونت » في قانونه من أن هذه الادوار وحدها هي التي تردد بينها التفكير الانساني في فهم الاشياء . فهنالك أدوار أخرى كثيرة سلكها الانسان المتحضر والريفي والبدائي في ادراك الظواهر متأثرا بنظمه وعاداته وأعرافه وتقاليده وعقائده ومختلف القوالب التي يلزمه مجتمعه بأن يصب فيها فكره وفهمه للكون وما وراءه .

ـ وليس بصحيح ما زعمه « كونت » في قانونه من أن تطور الظواهر الاجتماعية لا يتأثر الا بتطور التفكير . فتطور شئون الاجتماع ينجم عن أمور أخرى كثيرة . بل لعل الاصح أن يقال ان تطور التفكير في معظم مظاهره نتيجة لتطور الحياة الاجتماعية ، لا سببا لهذا التطور .

وكذلك بالنسبة للاستاتيك الاجتماعي ، ويقصد به « كونت » دراسة المجتمعات الانسانية من حيث تفصيلاتها وجزئياتها ، ومن حيث العناصر والنظم الاجتماعية في حالة استقرارها وباعتبارها ثابتة في فترة معينة من تاريخها ، بقصد الوقوف على القوانين التي تحكم تماسكها وتعمل على تضامنها ، على اعتبار أن الحقيقة الاساسية في النظم الاجتماعية تتمثل في الاتساق العام Consensus universals ويقصد به الارتباط الضروري بين عناصر المجتمع •

ويعد الاتساق العام من وجهة نظر « كونت » بشابة الاساس الحقيقي للتضامن ، كما يعد كذلك أساسا لتقسيم العمل الاجتماعي • وهنا نلمح مرة أخرى مقابلة بين المجتمع والكائن الحي • فهنا وهناك يتم انجاز وظائف معينة يترتب عليها وجود كائنات قائمة على التضامن • وملخص قانون التضامن ــ طبقا لذلك ــ أن مظاهر الحياة الاجتماعية تتضامن بعضها مع بعض ، وتسير أعمال كل مجموعة من الظواهر الاجتماعية متسقة مع أعمال ما عداها • وتتضامن جميعها على حفظ المجتمع وصيانة حياته ، فهي تشبه أجهزة الجسم الحي ، اذ يختص كل منها بوظيفة تختلف عن وظيفة ما عداه • ولكن هذه الوظائف كلها تتسق بعضها مع البعض ، وتتضافر على حفظ الكائن الحي وصيانة حياته • ولكن ما يجب تأكيده هنا أنه مع أن « كونت » استخدم القياس التشبيهي بين المجتمع والكائن الحي ، الا أنه لم يخلط بينهما بالمرة •

وعلى الرغم من ذلك فان قانون التضامن هذا لا يقل فسادا عن قانون الحالات الثلاث :

ــ فليس بصحيح أن جميع مظاهر الحياة الاجتماعية يتسق بعضها مع البعض الآخر ، ويتضافر بعضها مع بعض بهذا الاتساق والتضامن اللذين تصورهما كونت • ففي كل مجتمع انساني بجانب النظم المقررة

توجد تيارات تطورية ترمي الى تقويض هذه النظم واستبدالها بنظم أخرى على طرفي نقيض ، مع أن كليهما من مظاهر الحياة الاجتماعية ومن عناصرها .

ومن جهة أخرى فان في كل مجتمع نجد نظما لا تخضع لمنطق الفكر العادي ، وانما تتلقاها عن طريق التلقين على أنها أمور سمعية كمعظم العقائد الدينية . ونجد بجانبها نظما أخرى تقوم على دعائم يسيغها التفكير العادي وتوائم منطقه . ومن الواضح أن هذين النوعين متنافرين كل التنافر ، فلا تضامن بينهما ولا اتساق مع أن كليهما من مظاهر الحياة الاجتماعية وعناصرها .

ومن تناقضات كونت مع نفسه اعترافه بأن أساليب التفكير وفهم الاشياء في عصره كانت متنافرة مع بعضها البعض كل التنافر الى حد الفوضى العقلية ، الامر الذي دعاه الى ابتكار علم الاجتماع للقضاء على هذه الفوضى العقلية ... فكيف يستقيم هذا مع ما قرره في هذا القانون من أن التضامن أو الاتساق هو القاعدة في مظاهر الاجتماع الانساني .

هذا وترجع أسباب اخفاق كونت في قانونيه : قانون الحالات الثلاث ، وقانون التضامن الى أنه تصيَّد ما يؤيد وجهات نظره ، فضلا عن اعتماده على مبادئه الفلسفية في القول بهذين القانونين .

وهناك لأوجيست كونت نظرية في التقدم الانساني ، وأخرى في الاسرة وثالثة في التربية ورابعة في الدين . وابتداعه لديانة جديدة هي ديانة الانسانية La Religion de L'humanite، مبدؤها الحب وأساسها النظام وغايتها التقدم[١٤] . وهذه الديانة هي التي تجعل ـ كما زعم ـ

---

(١٤) L'amour pour principe, L'ordere pour base, Le progrés pour but.

من الانسانية جمعاء « الاله الذي يجب أن نقدسه » ومن هذا نرى أن فكرة « الانسانية » لدى كونت تحل محل فكرة « الله » • ولكن فشله ــ حتى ــ في اقناع نفسه بهذه الديانة ، فضلا عن فشله في اقناع الآخرين أدى به الى الوقوع ضحية المرض العقلي في أخريات أيامه • الامر الذي دفعه الى ترك الحرية للناس للايمان بالاديان السماوية ، أو بدينه ــ أو بالاحرى ــ بهرائه المقترح • وانتهى كونت من تحليله الديني الى ضرورة « احياء ذكرى الرجال العظماء والفلاسفة الذين أدوا أعمالا جليلة وخدمات لا تقدر للجنس البشري » ومعنى ذلك هو الاتجاه بالعبادة والتقديس الى طائفة من بني الانسان • وهي فكرة فجة لم تجد من يؤيدها • وهي لا تتفق مع مبادىء علم الاجتماع الذي يعتبر الدين ضرورة اجتماعية ، ومن ثم فهو إلهي أو تلقائي النشأة ، وليس قابلا للانشاء كما يقول ــ أو كما يرغب ــ كونت[١٥] ــ •

خلاصة الموازنة :

ــ أن ابن خلدون قد انتهت دراساته بوضع علم جديد وهو « علم العمران » وأن الاسباب التي دعته لانشاء هذا العلم هي أن يجعل منه أداة لتصحيح حقائق التاريخ ، وهي أسباب واقعية لا فلسفية • وحدد له منهاجا علميا لا يقل دقة عن المناهج الحديثة • كما تناول بالدراسة العديد من الظواهر الاجتماعية وكان استخدامه لمنهاجه استخداما طيبا الى حد كبير ، في قانونه ذي الاطوار الثلاثة • ومن ثم كان لنا أن نفخر بذلك المفكر العربي المسلم الذي توصل الى ابتكار علم الاجتماع قبل أن يتوصل اليه علماء أوروبا بنحو خمسة قرون •

---

(١٥) دكتور زيدان عبد الباقي : علم الاجتماع الديني ، مكتبة غريب ، القاهرة ١٩٨١ صفحات ٥٢ ــ ١٠٩ •

أما « كونت » فقد :

(أ) ادعى أن الاسباب التي دعته الى انشاء علم الاجتماع ، هي أن الناس كانوا في زمانه يفهمون الظواهر بطريقة وضعية ، وهـذا ليس بصحيح • وذلك لان الاسباب التي دعته الى انشاء علم الاجتماع أسباب خيالية ، ومن وحي تفكيره الخاص ، كما برهنا على ذلك من قبل •

(ب) قال « كونت » بقواعد منهجية لها قيمتها ، ولكنه قرنهـا بقانونه الميتافيزيقي ، الامر الذي أضاع قيمة القواعد المنهجية التي قال بهـا •

(جـ) انتهى كونت من دراسته الديناميك الاجتماعي الى القـول بقانونه ذي الادوار الثلاثـة الذي أوضح أنه استخلصه من تطـور الانسانية • هذا القانون يقوم ـ كما قدمنا ـ على أساس ميتافيزيقي ، لان الانسانية كلها لا تتحرك في صورة متماثلة •

(د) قال بأن تطور الظواهر الاجتماعية يرجع الى تطور التفكير ، مع أن العكس هو الصحيح •

(هـ) انتهى كونت من دراسته « الاستاتيك الاجتماعي » الـى قانون التضامن La Solidarité وهذا ـ أيضا ـ تفكير فلسفي ، ترفضه مناهج البحث الحديثة في علم الاجتماع •

(و) لم يدرك كونت الذي أقام علم الاجتماع أن الدين ضرورة اجتماعية وأن التدين ظاهرةاجتماعية من صفاتها التلقائية ، والتعبير عن مقتضيات العمران وأحوال المجتمع • وأنه لا يمكن أن يفرض على جيل بالقوة ، ولا على مجتمع من المجتمعات بالقهر والتهديد • وان كان قد خفف من الزامه للناس بدياناته السالفة الذكر في أخريات أيامه •

ترى : أليس من حقنا أن نفخر كل الفخر بمفكرنا العظيم ، عالم الاجتماع الاول في العالم ، ومنشىء هـذا العلم « عبد الرحمن بن خلدون » ؟... بلى .

* * *

المراجع العربية والاجنبية

أولا ـ المراجع العربية

١ ـ الدكتور زيدان عبد الباقي : التفكير الاجتماعي ، نشأته وتطوره • الطبعة الثالثة ، مكتبة غريب ، القاهرة ١٩٨١ •

٢ ـ الدكتور زيدان عبد الباقي : علم الاجتماع الديني • الطبعة الاولى ، مكتبة غريب ، القاهرة ١٩٨١ •

٣ ـ الاستاذ الدكتور طه حسين : فلسفة ابن خلدون الاجتماعية ـ تعريب محمد عبد الله عنان ـ القاهرة ١٩٢٥ •

٤ ـ عبد الرحمن بن خلدون : كتاب « المبتدأ والخبر في العرب والعجم والبربر ، ومن عاصرهم من ذوي السلطان الاكبر » الطبعات الثلاث التي أشرف عليها الشيخ نصر أبو الوفا الهوريني ، وقد صدرت كلها في القاهرة ، الاولى سنة ١٨٥٨ والثانية سنة ١٢٨٣ هـ في عهد الخديوي اسماعيل والثالثة سنة ١٢٩٩ هجرية في عهد الخديوي توفيق ••• وكلها صادرة عن مطابع بولاق مصر القاهرة • والطبعتان الثانية والثالثة مودعتان بالمكتبة المركزية بجامعة قاريونس ـ بنغازي ليبيا ـ تحت رقم ٧١٨٧ •

٥ ـ الاستاذ الدكتور علي عبد الواحد وافي : مقدمة ابن خلدون (تحقيق وضبط واستكمال الناقص منها وتحليل محتوياتها وايضاح الغريب من ألفاظها •••) مطبعة لجنة البيان العربي ، القاهرة ١٩٦٢ ، وهي أربعة أجزاء بيانها كما يلي :

ـ الجزء الاول من صفحة ١ الى صفحة ٥٥٠ طبعة ثانية وينطوي على الباب الاول من المقدمة .

ـ الجزء الثاني من صفحة ٥٧٧ الى صفحة ٦٣٠ طبعة ثانية وينطوي على الباب الثاني من المقدمة .

ـ الجزء الثالث من صفحة ٨٢٩ الى صفحة ٩٧٢ طبعة أولى وينطوي على البابين الرابع والخامس من المقدمة .

ـ الجزء الرابع من صفحة ٩٧٤ الى صفحة ١١٣١ طبعة أولى وينطوي على الباب الرابع من المقدمة .

وتحقيق الدكتور وافي لهذه المقدمة جعل منها مرجعا ميسورا للقارىء العادي والقارىء المتخصص بالاضافة الى استكمال الناقص منها ـ وهو كثير ـ في الطبعات المتداولة في العالم العربي من تلك المقدمة . وهو عمل علمي كبير يستحق الاشارة والتقدير .

٦ ـ تاريخ العلامة ابن خلدون : منشورات دار الكتاب اللبناني للطباعة والنشر ، الطبعة الاولى بيروت ١٩٥٦ .

ثانيا ـ المراجع الاجنبية

1 — Comte, A. : Le Systeme de politique positive, Paris, 1854.

2 — Durkheim, E. : Les Régles des La Méthode Sociologique. Neuviéme Edition. Libraire Félix Alcan, Paris, 1938.

3 — Lukes, S. : Durkheim, E. : His Lif and Work. Historical and critical study. London, 1937, pp. 137 - 172.

4 — Timasheff, N.S. : Sociological Theory, Its Nature and Growth. Second printing, House, N.Y., 1967, ch. L